

المحاضرة العاشرة

الكناية والتعريض في القرآن الكريم

هما من أنواع البلاغة وأساليب الفصاحة وقد تقدم أن الكناية أبلغ من التصريح وعرفها أهل البيان بأنها لفظ أريد به لازم معناها وقال: الطيبي ترك التصريح بالشيء إلى ما يساويه في اللزوم فينتقل منه إلى الملزوم.

الكناية والتعريض بينهما عبارات متقاربة . قال الزمخشري الكناية ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره وقال ابن الأثير: الكناية ما دل على معنى يجوز حمله على الحقيقة والمجاز بوصف جامع بينهما والتعريض اللفظ الدال على معنى لا من جهة الوضع الحقيقي أو المجازي كقول من يتوقع صلة والله إني محتاج فإنه تعريض بالطلب مع أنه لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً وإنما فهم من عرض اللفظ أي جانبه.

وقال السبكي: في كتابه (الإغريض في الفرق بين الكناية والتعريض) الكناية لفظ استعمل في معناه مراداً منه لازم المعنى فهي بحسب استعمال اللفظ في المعنى حقيقة والتجوز في إرادة إفادة ما لم يوضع له وقد لا يراد منها المعنى بل يعبر بالملزوم عن اللازم وهي حينئذ مجاز ومن أمثلته: {قل نار جهنم أشد حراً} فإنه لم يقصد إفادة ذلك لأنه معلوم بل إفادة لازمه وهو أنهم يردونها ويجدون حرها إن لم يجاهدوا وأما التعريض: فهو لفظ استعمل في معناه للتلويح بغيره نحو: {بل فعله كبيرهم هذا} نسب الفعل إلى كبير الأصنام المتخذة آلهة كأنه غضب أن تعبد الصغار معه تلويحاً لعابدها بأنها لا تصلح أن تكون آلهة لما يعلمون إذا نظروا بعقولهم من عجز كبيرها عن ذلك الفعل والإله لا يكون عاجزاً فهو حقيقة أبداً.

وقال السكاكي: التعريض ما سيق لأجل موصوف غير مذكور ومنه أن يخاطب واحد ويراد غيره وسمي به لأنه أميل الكلام إلى جانب مشاراً به إلى آخر يقال: نظر إليه بعرض وجهه أي جانبه. قال الطيبي: وذلك يفعل إما لتتويه جانب الموصوف ومنه: {ورفع بعضهم درجات} أي محمداً صلى الله عليه وسلم إعلاء لقره أي أنه العلم الذي لا يشتبه.

وإما لتلطف به واحتراز عن المخاشنة نحو: {وما لي لا أعبد الذي فطرني} أي ومالكم لا تعبدون بدليل قوله: {وإليه ترجعون} وكذا قوله: {أأخذ من دونه آلهة} ووجه حسنه إسماع من يقصد خطابه الحق على وجه يمنع غضبه إذ لم يصرح بنسبته للباطل والإعانة على قبوله إذ لم يرد له إلا ما أراحه لنفسه. وإما لاستدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم ومنه: {لئن أشركت ليحبطن عملك} ، خوطب النبي صلى الله عليه وسلم وأريد غيره لاستحالة الشرك عليه شرعاً.

وإما للذم نحو: {إنما يتذكر أولو الألباب} فإنه تعريض بزم الكفار وإنهم في حكم البهائم الذين لا يتذكرون.

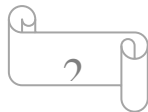
وإما للإهانة والتوبيخ نحو: {وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت} . وقال السبكي التعريض قسمان: قسم يراد به معناه الحقيقي ويشار به إلى المعنى الآخر المقصود كما تقدم وقسم لا يراد بل يضرب مثلاً للمعنى الذي هو مقصود التعريض كقول إبراهيم: {بل فعله كبيرهم هذا}.

وللكناية أسباب:

أحدها: التنبيه على عظم القدرة نحو: {هو الذي خلقكم من نفس واحدة} كناية عن آدم.

ثانيها: ترك اللفظ إلى ما هو أجمل نحو: {إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة} فكنى بالنعجة عن المرأة كعادة العرب في ذلك لأن ترك التصريح بذكر النساء أجمل منه ولهذا لم تذكر في القرآن امرأة باسمها إلا مريم قال السهيلي وإنما ذكرت مريم باسمها على خلاف عادة الفصحاء لنكتة وهو أن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في ملأ ولا يبتذلون أسماءهن بل يكونون عن الزوجة بالفرش والعيال ونحو ذلك فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا عنهن ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر فلما قالت النصراني في مريم ما قالوا صرح الله باسمها ولم يكن تأكيداً للعبودية إلا التي هي صفة لها وتأكيداً لأن عيسى لا أب له وإلا لنسب إليه.

ثالثها: أن يكون التصريح مما يستقبح ذكره ككناية الله عن الجماع بالملامسة والمباشرة والإفشاء والرفث والدخول والسر كقوله: {لا تواعدوهن سرًا} والعشيان في قوله {فلما تغشاها} أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال المباشرة الجماع ولكن الله يكتفي



وأخرج عنه قال إن الله كريم يكني ما شاء وإن الرفث هو الجماع وكنى عن طلبه بالمرأودة في قوله: {ورأودته التي هو في بيتها عن نفسه} وعنه أو عن المعانقة باللباس في قوله: {هن لباس لكم وأنتم لباس لهن} وبالحرث في قوله: {نساؤكم حرث لكم}

وكنى عن البول ونحوه بالغائط في قوله: {أو جاء أحد منكم من الغائط} وأصله المكان المطمئن من الأرض وكنى عن قضاء الحاجة بأكل الطعام في قوله في مريم وابنها: {كانا يأكلان الطعام} ومن ذلك التصريح بالفرج في قوله: {التي أحصنت فرجها}

وأجيب: بأن المراد به فرج القميص والتعبير به من لطف الكنايات وأحسنها أي لم يعلق ثوبها بريية فهي طاهرة الثوب كما يقال: نقي الثوب وعفيف الذيل كناية عن العفة - ومنه: {وثيابك فطهر} - وكيف يظن أن نفخ جبريل وقع في فرجها وإنما نفخ في جيب درعها.

رابعها: قصد البلاغة والمبالغة نحو: {أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين} ، كنى عن النساء بأنهن ينشأن في الترفه والتزين الشاغل عن النظر في الأمور ودقيق المعاني ولو أتى بلفظ "النساء" لم يشعر بذلك والمراد نفي ذلك عن الملائكة وقوله: {بل يدها مبسوطتان} كناية عن سعة جوده وكرمه جدا.

خامسها: قصد الاختصار كالكناية عن ألفاظ متعددة بلفظ "فعل" نحو: {البئس ما كانوا يفعلون} {فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا} أي فإن لم تأتوا بسورة من مثله.

سادسها: التنبيه على مصير المكنى عنه نحو: {تبت يدا أبي لهب وتب} أي جهنمي مصيره إلى اللهب {حمالة الحطب في جيدها حبل} أي نمامة مصيرها إلى أن تكون حطبا لجهنم في جيدها غلقال بدر الدين بن مالك في المصباح إنما يعدل عن التصريح إلى الكناية لنكتة كالإيضاح أو بيان حال الموصوف أو مقدار حاله أو القصد إلى المدح أو الذم أو الاختصار أو الستر أو الصيانة أو التعمية والإلغاز أو التعبير عن الصعب بالسهل أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن

واستتبط الزمخشري نوعا من الكناية غريبا وهو أن تعتمد إلى جملة معناها على خلاف الظاهر فتأخذ الخلاصة من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة والمجاز فتعبر بها عن المقصود كما تقول في نحو: {الرحمن على العرش استوى} إنه كناية عن الملك فإن الاستواء على السرير لا يحصل إلا مع الملك

فجعل كناية عنه وكذا قوله: {والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه} كناية عن
عظمته وجلالته من غير ذهاب بالقبض واليمين إلى جهتين حقيقة ومجاز.